تعتبر مسألة الصوت ودلالته قضية بعيدة الأمد في الدراسة اللغوية، لطالما شغلت فكر الفلاسفة واللغويين حتى أن علماء العربية وقفوا أمامها مطولا، ومن الأوائل الذين أشاروا إلى هذه النقطة: الخليل بن أحمد الفراهيدي، الذي أولى اهتماما لدراسة القيمة التعبيرية للأصوات ومدى اتفاق المعنى الدقيق مع جرس الحرف المختار فقد شغلته الألفاظ المعبّرة عن أصوات المسموعات ورأى فيها أصواتا محاكية" ومن ذلك قوله المشهور"كأنهم توهموا في صوت الجندب استطالة ومدًا فقالوا: صر وتوهموا في صوت البازي تقطيعا فقالوا: صرصر"[1]

أما سيبويه فيقول في كتابه هذا باب "إفعوعلت" وماهو على مثاله مما لم نذكره: قالوا:"حشن" وقالوا"اخشوشن وسألت الخليل فقال: كأنهم أرادوا المبالغة والتوكيد كما أنه إذا قال"إعشوشبت الأرض فإنما يريد أن يجعل ذلك كثيرا عاما وقد بالغ"[2]

ومن الأمثلة الكثيرة المترددة في كتب اللغة المثال الشهير لابن جني– المؤيد لنظرية "محاكاة الطبيعة في اللغة" الخضم لأكل الرطب نحو البطيخ والقثاء والقضم لأكل اليابس نحو قضمت الدابة شعيرها، لأن حرف الخاء يشبه صوت أكل الشيء الرطب وحرف القاف يشبه صوت أكل الشيء اليابس.

وفي القرآن الكريم أمثلة كثيرة من ذلك تطرق إليها المفسرون مثلا**"ألم تر أنا أرسلنا الشياطين على الكافرين تؤزهم أزا"** يرى ابن جني أن تقارب الألفاظ ينتج عن تقارب المعاني فالهز والأز متقاربان في اللفظ ومتقاربان في المعنى، وتؤزهم أزا أي تقلقهم وتزعجهم، فهذا في معنى تهزهم هزا. والهمزة أخت الهاء، فتقارب اللفظان...وكأنهم قصروا هذا المعنى بالهمزة لأنها أقوى من الهاء وهذا المعنى أعظم في النفوس من الهز لأنك قد تهز مالا بال له، كالجذع وساق الشجرة ونحو ذلك[3]

أما في الدراسة اللغوية الحديثة فقد تنوعت الآراء ما بين مؤيد لفكرة المحاكاة وبين رافض لها.

نشير مثلا إلى المدرسة البنوية السوسورية القائلة بمبدأ الاعتباطية بين الدال والمدلول أي استحالة وجود علّة سببية بين المدلولات ودوالها بل وقع الأمر اصطلاحا واتفاقا بين أفراد المجموعة البشرية الواحدة. وقد سار على هذا النهج الأغلبية الساحقة من المدارس اللسانية اللاحقة والمتأثرة بالمبدأ السوسوري ،إلا أنها بدأت تفقد الإصرار على هذه الفكرة مع اللسانيات المعاصرة(لسانيات النص والأسلوبية والتداولية) التي وجدت بعد دراسات مستفيضة أن القول بالاعتباطية على طول الخط ليس بمخرج في الدراسة، فالخطابات في حد ذاتها تعتمد على التأثير الصوتي وعلى تناسب الأصوات والمكان المناسب فإنا نجد في أنفسنا ارتياحا ونحن ننطق بالكلمات التالية:

مثلا: الفلاح –النجاح– الراحة– السباحة...الخ وبناء هذه الكلمات على ألف المد في وسطها ثم على الحاء الخفيفة بطبيعتها يدل على راحة بعد مشقة ؛ مشقة المد في الألف.

وعن سوسور أيضا فقد أبقى باب الاعتباطية نسبيا لما تنبّه إلى دوال لغوية كثيرة في اللغة الفرنسية نسجُها كان على منوال مبدأ المحاكاة : صوت الماء glouglou

أما جسبرسن فيقول"إن كلمات اللغات تزداد مع الأيام إيحاء للدلالات وتكتب الألفاظ بمرور الزمن قدرا من تلك الرمزية ويتنبأ من أجل هذا بتلك النبوءة المتفائلة التي كان يحلم بها بعض الفلاسفة اليونان، من أنه سيأتي اليوم الذي تصبح فيه الصلة بين الألفاظ ودلالتها أكثر وضوحا وأوثق ربطا مما عرف أجدادنا القدماء"[1]

أما همبلت فيرى أن"هذه الرمزية أو المناسبة الطبيعية تظهر في الألفاظ ولكنها في وقت ما تبدو غامضة" على أن همبلت حين افتقد تلك الصلة في معظم كلمات اللغة ووجدها غامضة ادّعى أن الصلة بين أصوات الكلمات ومدلولاتها قد أصابها بعض التطور واختفت مع توالي الأيام"[2]

وهكذا يبدو الأمر واضحا بضرورة البحث والتقصي في الموضوع وتتبع كلمات اللغة ودراسة النص من أصغر جزء إلى أكبره، فمتطلبات العصر اليوم والابتعاد عن الإحساس اللغوي جعلت ذلك الجانب الروحي في اللغة يزول تدريجيا، لذلك نقول أن معظم ألفاظ الحضارة والتكنولوجيا جامدة في معانيها ومفرغة كفراغ هذه المدنية من الروحانية فأصبحت اللغة مثل الآلة، وألفاظها قطع منها تقوم بدور الإبلاغ والاتصال وكفى ولا تبتعد بها إلى المجال الروحي والفكري.

وكخلاصة لهذا الموضوع الطويل في كتب اللغة العربية والغربية قديما وحديثا، نورد خلاصة خلص إليها خالد قاسم بن دومي– نراها مناسبة هنا– توصل إليها بعد طول نظر في نقاط هذا الموضوع:

"تتميز اللغة العربية عن سائر اللغات الإنسانية بقضية مهمة تتلخص في انسياق كثير من لغويي العربية المحدثين وراء بعض اللغويين الغربيين، الذين سخروا من فكرة العلاقة بين الأصوات ودلالتها ولم يشيروا في الغالب إلا إلى مظهر واحد من مظاهرها، وهو دلالة حكاية الأصوات المسموعة ونسي هؤلاء أو تناسوا مسألة الاختلاف الكبيرين طبيعة لغتهم واللغات الأخرى، ورددوا ما قاله الغربيون وخلعوه عن لغتهم بعد أن كسيت به ثوبا قشيا"[3]

وبعد أن أشار بن دومي إلى خصوصية اللغة العربية وفصاحتها من الواجب والمهم أيضا أن نشير إلى خصوصية لغة القرآن الكريم وإعجاز لغته وأنه ليس بقول البشر بل قول القدير المقتدر، وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي"**بلسان عربي مبين**" **كتاب فصّلت آياته**" " **كتاب أحكمت آياته**"

ولولا أن للصوت قيمة ودلالة من حيث المخرج والصفة لما كانت الآيات الكثيرة توصي بحسن القراءة، في إجادة التلاوة.

"**فإذا قرأناه فاتبع قرآنه**" [4]

"**ورتل القرآن ترتيلا** " [5]

" **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته**" [6]

وبهذا يتبين لنا أن حسن القراءة وفقا لما أنزل تظهر لنا الحقيقة الداخلية للنص القرآني وآفاقه المتعددة. "ويمكن التعبير عن التجويد بحسن الآداء، وهذا يتطلب قراءة القرآن بتطبيق الأحكام، وإشباع الحركات وتبيين الحروف بإعطائها حقها من المخارج والصفات، ومستحقها من المد والإظهار والإدغام والإخفاء والقلب والقلقة والتنغيم والترقيق والسكت والروم والإشمام وغيرها، فإن هذه الظواهر تنهض لتحقيق غاية عظيمة تتمثل في استظهار دلالات النص القرآني، وهذا وجه عظيم من أوجه معجزات القرآن الكريم الذي لا تنقض عجائبه"[7]

التكرار الصوتي

المفهوم:

ورد في لسان العرب التكرار بفتح التاء، الترداد والترجيع من كر يكر كرا وتكرارا والكر الرجوع على الشيء ومنه التكرار، وكرر الشيء وكركره أعاده مرة بعد أخرى ويقال كررت عليه الحديث وكركرته إذا رددته عليه"[1]

فإرجاع الشيء وترديده هو حضور نفس الظاهرة عدة مرات، إما بنفس الصورة وإما بصورة مختلفة في مواضيع متقاربة أو متباعدة، وموضوع دراستنا طبعا هو الظاهرة اللغوية أو الوحدة الصوتية وكيفية حدوثها في القرآن الكريم.

"ونعني بها في الاستعمال تعدد الاستخدام اللغوي لأقسام الكلام في السياق الواحد أو الأسبقية المختلفة، فيكون على مستوى الأصوات أو اللفظ أو الجملة وهو ما يعرف بالترجيع أيضا"[2].

وقد وقعت في القرآن الكريم صور لبعض التكرار اللفظي والمعنوي وبالتحديد القصص– موضوع دراستنا– فقد أعيد ذكر بعضها في مواضيع مختلفة قد يمر عليها القارئ دون أن يعرف المغزى والحكمة من ذلك..." الحقيقة أنه ليس في القرآن الكريم اختلاف في القصة وإنما يختلف التعبير عن مشهد من مشاهد القصة بين سورة وسورة لأ لأن كل سورة تأتي بجزئية من القصة نفسها تتناسب وسياق الآيات في السورة التي تذكر فيها، فالمشاهد كلها وقعت للقصة نفسها ولا تختلف في الفحوى والحقيقة"[3]

وإن كان التكرار في الكثير من التعليلات البلاغية واللغوية يرد لغرض التوكيد ولفت الانتباه والوعد والوعيد مثل إعادة آيات بعينها:

–" الحاقة ما الحاقة وما أدراك ما لحاقة"[4].

–"كلا سوف تعلمون، ثم كلا سوف تعلمون. كلا لو تعلمون علم اليقين لترونّ الجحيم"[5]

فما هو الغرض من تكرار قصص بعينها من موضع لآخر؟

في ظل هذا التساؤل نود تقصي الموضوع أولا من جانبه الصوتي ثم من جوانبه الأخرى الإفرادية والتركيبية ، فالقرآن الكريم لا تنقض عجائبه إذ كيف يكون فيه تكرار وإيجاز دون اقتضاب في نفس الوقت، وقد أشار إلى ذلك الأولون: "ينص البلاغيون على أن التكرار أحد أنواع الإطناب يأتي في تقديرهم للإنذار والردع كما يأتي لتعدد المتعلق مثل قوله تعالى في سورة الرحمن: "فبأي آلاء ربكما تكذبان" وقوله في سورة المرسلات: "ويل يومئذ للمكذبين" أما سورة القمر فدلت على الأسلوب الموجز رغم أن التكرار يتردد كثيرا في قوله تعالى "فكيف كان عذابي ونذر" عقب كل حادث ناجع لمكذبي الأنبياء، ولكن كيف يتردد التكرار على هذه الصورة في سورة القمر التي أشارت إلى موقف الأمم الغابرة من دعوة الأنبياء، ثم تكون مثالا للإيجاز؟ "[6]

واخترنا أن تكون هذه الدراسة تحليلية مقارنة للقصص القرآني في سورتين اعتبرهما الباحثون متقاربتين في الشكل والمعنى مع اختلاف في المنهج والأداء ، لذلك حاولنا البحث عن الصور الصوتية المتكررة والمتقاربة واستجلاء الدلالات البعيدة في كل واحدة وقد أشار سيد قطب "في ظلال القرآن "إلى الشبه الموجود بين سورة الأعراف وسورة هود " فأما هود فهي شديدة

الشبه بالأعراف موضوعاً وعرضا وإيقاعا ونبضا ...ثم تبقى لكل سورة شخصيتها الخاصة، وملامحها المميزة بعد كل هذا التشابه والاختلاف "[1]

التحليل

ونشير هنا إلى أن المدونة المدروسة عبارة عن قصص للأنبياء– سلام الله عليهم – تعرض لعظم البلاء الذي تعرضوا له من أقوامهم بعدما دعوهم إلى عبادة الله الواحد الأحد الذي أنعم وأفاض بالخيرات والنعم عليهم.

فالسورتان إذن عرض لوقائع تاريخية غابرة واحدة، بأكثر من أسلوب وصورة. وما نحاول الكشف عنه من خلال هذه الدراسة هو هذه الأساليب المختلفة والطرق المتعددة في عرض قصة النبي الواحد... –والله المعين على ذلك– .

القصة الأولى:قصة نوح –عليه السلام–.

إن المتتبع لقصة نوح عليه السلام في السورتين (الأعراف–هود) يسترعي اهتمامه ذلك العرض الرائع المستوفي لعناصر القص ما بين إيجاز واسترسال دون أن تتعرض القصة لأي خلل أو تفاوت – وحاشى لكلام الله أن يعتريه النقصان– فإنك تجد في سورة الأعراف عرض موجز وشامل اتسمت فيه الآيات بالإيجاز إذا ما قورنت بسورة هود التي فصلت في هذه القصة جيدا وباسترسال في عرض الأحداث بدءا بـ :

الدعوة إلى عبادة الله ← نكران القوم واستصغار الرسول ← إصراره على النصح ← إصرارهم على الرفض ← بناء السفينة وهلاك المكذبين.

وفي مقام الإيجاز اختزلت الأصوات أما في مقام الاسترسال فقد حدث التكرار للدلالة على التأكيد والإلحاح.

الأمثلة :

1– نراك ذكرت مرة واحدة في سورة الأعراف.

"إن لنراك في ضلال مبين" [(2)].

أما في سورة هود فقد تكررت أصوات "الراء– الألف– الياء" مجتمعة في صيغ، الرأي والرؤية ست مرات :

"ما نراك إلا بشرا مثلنا وما نراك، تبعك إلا الذين هم أراذلنا بادي الرأي. وما نرى لكم علينا من فضل بل نظنكم كاذبين"[(3)]

"قال يا قوم أرأيتم ..."[(4)]

" ولكن أراكم قوما تجهلون..".[(5)]

تكرار صوت اللام على صيغة النفي في سورة هود مع ذكر اللام النافية مرة واحدة في سورة الأعراف، وهذا لأن سورة هود ركزت على أسلوب الحوار المسترسل في الحديث بينما اعتمدت سورة الأعراف على أسلوب القص بصيغ الماضي أكثر من الحوار.

سورة الأعراف" **أبلغكم رسالات ربي وأنصح لكم وأعلم من الله مالا تعلمون**"[(6)]

سورة هود:–**"لا تعبدوا إلا الله.."**[(7)].

–**"يا قوم لا أسألكم عليه مالا.."** [(8)].

–"ولا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك، ولا أقول للذين تزدري أعينكم.."[1].
ولا ينفعكم نصحي.."[2]

2– في القصة تناغم موسيقي معجز صنعه تكرار بعض الأصوات لأغراض نحوية وتركيبية وهذا في السورتين (الأعراف–هود) ولكن ببعض الفروقات الحاصلة بشكل دقيق تجعل من القرآن الكريم"ما هو بقول البشر إن هو إلا وحي يوحي"

إذن:القصة في سورة الأعراف وهي عبارة عن تقديم موجز وشامل في نفس الوقت استخدمت صيغة المخاطب بكثرة فتكررت الصيغة "**كم**"عدة مرات لتضع سلاسة في الجرس الصوتي للآيات الذي يجعل القارئ والسامع على السواء يشعران بعظم الجهد الذي بذله–نوح– ع س في الدعوة والنصح لقومه وبأسلوب لين لطف حيث تكررت الأصوات على النحو التالي في السورتين:

سورة الأعراف"يا قوم.....مالكم...عليكم...يا قوم...أبلغكم...أنصح لكم...أعلم...أو عجبتم...جاءكم...من ربكم...منكم.....لينذركم....لعلكم...."

سورة هود، يا قوم...لا أسألكم...أراكم...يا قوم...إن طردتهم...لا أقول لكم...أعينكم لن يؤتيهم..."

3–سورة هود لما طال الحديث فيها عن قصة نوح–عليه السلام– بالشرح والتفصيل جاء أسلوب الدعوة والنصح بالتفصيل للدلالة على صبر سيدنا نوح–عليه السلام– مع قومه بأسلوب الأخذ والرد في الحوار وقد وقعت فيها بعض الظواهر الصوتية تعبر عن ذلك أيضا:

– "أنلزمكموها"[3]: هي كلمة واحدة وقع فيها تركيب لمقاطع أحدثت نطقا يستدعي وقتا معينا، توقفا وتركيزا من أجل التدبر في المعنى الدلالي لهذه التشكيلات الصوتية.

"فتحس أن لفظ "أنلزمكموها " يصور جو الإكراه بإدماج كل هذه الضمائر في النطق، وشد بعضها إلى بعض، لما يدمج الكارهون مع ما يكرهون ويشدون إليه وهم منه نافرون "[4]

ونضيف قولا في هذا المقام من باب إحداث المقارنة بين السورتين ، أن حصول هذا التشاكل الصوتي في سورة هود وعدم حصوله في سورة الأعراف يعود لنفس السبب المذكور آنفا "الإيجاز" ففي سورة الأعراف أُعطيت لنا صورة شاملة خاطفة دون أن يُدَقق في تفاصيل الأحداث، مثلما ورد فيما بعد في سورة هود التي فصّلت في القصة للدلالة على عظم الصبر والمشقة في التعامل مع قوم أصروا على الاستكبار فثقلت أسماعهم وعميت أبصارهم"**جعلوا أصابعهم في أذانهم واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا** "[5]

وطول المقطع في الكلمة له دلالة صوتية على طول المدة التي كان يدعوهم فيها نبي الله نوح.ع.س– مع مشقة الاستجابة فلو استبدلنا هذه الكلمة بقولنا"أنلزمكمبها"أو "أنلزمكم إياها" لما أوحت بما توحي به هذه الكلمة. من الثقل وصعوبة التحمل والإكراه على حمل شيء ينفر هذا المدعو إليه من حمله ويستثقله بل ويأنف منه وتشمئز منه نفسه"[6]

قال تعالى:

"وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة"[7]

4–"يا أرض ابلعي ماءك ويا سماء أقلعي"[1] أحدثت هذه الآية بأصواتها المتناسقة نغما موسيقيا جميلا أشار إليه الجرجاني بقوله" فتأمل هل ترى لفظة منها بحيث لو أخذت من بين أخواتها وأفردت لأدت من الفصاحة ما تؤديه وهي مكانها من الآية"[2]

"أنعم النظر في لفظتي"أقلعي"و"ابلعي" وتجانسهما في أصوات، اللام– العين– الياء– مما يستحضر عند تصور جرسها الضخم العميق هيبة تحيط بالنفس، ورهبة تجلجل في الأعماق ونطق لفظتين يكاد يضيق الفم بها ويحبس النفس للنطق بهما"[3]

وقد أشار الزمخشري إلى ما أفصح عنه السياق من قوة وعمق التأثير المنبعث من حسن تجانس لفظتي"ابلعي"و "اقلعي" فضلا عما تضمنه من معان ونكت"[4]

وفي الآية أمر رباني لا حديث بعده ولا نقاش ، بعدما انتهى العذاب وأغرق القوم الكافرين– حيث أمر الله عز وجل السماء والأرض – وهما آيتان كونيتان– أن "أقلعي"و"ابلعي" ف قضي الأمر وهذا من سبيل الفعل الإلهي"كن فيكون"" **بديع السموات والأرض وإذا قضى أمراً فإنما يقول له كن فيكون** " [5]

"فهناك ألفاظ كثيرة لها صلة وثيقة بدلالتها، أي يكون في اللفظ إيحاء بالمعنى، فقد يأتي ، اللفظ مفردا، فيرسم في الذهن صورة المعنى، تارة بجرسه الذي يلقيه في الآذان وتارة بظله الذي يلقيه في الخيال وتارة ثالثة وبالجرس والظل"[6]

قصة هود–عليه السلام–

- لقد عمد الأنبياء سلام الله عليهم إلى أسلوباللين في التعامل مع قومهم وهو سبيل الذي أمرهم به الله عز وجل ففي سورة الأعراف:
- **"يا قوم..يا قوم...أنا لكم ناصح أمين** وفي سورة هود" **يا قوم ...يا قوم...يا قوم، استغفروا ربكم**...

فهذا تكرار لنفس الصيغة بغية التقرب والتحبب إلى القوم دون حواجز أو وسائط .

– ومن أساليب اللين والرفق في الدعوة تعداد النعم والخيرات قال تعالى في سورة الأعراف.

- **"وزادكم في الخلق بسطة"**[7]

أما في سورة هود. فورد التفصيل في النعم بقوله تعالى:

"يرسل السماء عليكم مدرارا، ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين"[8]

وهنا نسجل تقابلاً دلالياً بين اللفظة الواحدة والعبارة، إذ دلّت كلمة بسطة" دلالة على معناها انطلاقا من هذا المكان، وقياسا على ورودها في أماكن أخرى من القرآن الكريم حيث ترد أحيانا بصوت السين وأحيانا أخرى بصوت الصاد وفي هذا يقول العلماء"بصطة– بسطة– الأصل في الكلمة هو السين، والحجة لمن قرأ بالصادأنه أبدلها من السين لتؤاخي السين في الهمس الجهر وتؤاخي الطاء في الإطباق لأن السين مهموسة والطاء مجهورة ، والحجة لمن أشم الزاي أنها تؤاخي السين في الصفير وتؤاخي الطاء في الجهر[9]

" فبالسين السعة الجزئية، كذلك علّة التقييد، وبالصاد السعة الكلية بدليل علو معنى الإطلاق، وعلو الصاد مع الجهارة والإطباق"[10]

فقد وردت في سورة البقرة بالسين في وصف طالوت.

"قال إن الله اصطفاه عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم"[1] .

ووردت بالصاد في وصف قبيلة عاد قوم هود قال تعالى:"**واذكروا إذا جعلكم خلفاء من بعد قوم نوحوزادكم في الخلق بصطه واذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون**"[2] وطالوت إنما هو شخص واحد، وأما عاد فهي قبيلة، ومن المعلوم أن الصاد أقوى من السين السين وأظهر. فكان السين الذي هو أضعف أليق بالشخص الواحد والصاد الذي هو أقوى وأظهر وأليق بالقبيلة"[3]

ثم أن الله عز وجل في قصة هود–عليه السلام– أوضح بالصاد عظم النعيم الذي كانت عليه عاد من رغد في العيش والصحة ثم قابله جفاؤهم وجحودهم ما استلزم عظم البلاء والعذاب فأبادهم الله لأجل ذلك ولم يترك لهم من أثر.

"وسائر ما في القرآن يبسط" بالسين في أكثر من عشرة مواضع وذلك أن البسط في آية البقرة مطلق عام لا يخص شيئا دون شيء وفي غيرها مقيد، ولا شك أن البسط أقوى من المقيد، فهو يحمل البسط في الرزق وفي الأنفس وفي الملك وغيرها. فجاء في الأقوى بالصاد وفي المقيد بالسين "[4]

التنويع الصوتي والدلالي في تصوير العذاب الواقع على أهل عاد فقد ثبت تاريخيا ودينيا أنهم قوم أبادهم الله لشدة كفرهم وجحودهم، وهم من العرب البائدة. ففي سورة الأعراف عبرت الآية بلفظة القطع.

"....**وقطعنا دابر الذين كذبوا بآياتنا..**" [5]

وفي سورة هود عبرت الآية بلفظة البعد قال تعالى:

"**واتبعوا في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة ألا إن عادا كفروا ربهم ألا بعدا لعاد قوم هود**"[6]

وفي كلتا اللفظتين"القطع" " البعد"" شدة وصلابة في الإيحاء الصوتي ابتداء من القاف الشديدة المجهورة إلى الطاء القوية إلى العين ثم الباء والعين والدال في البعد.

أما القطع: فهو للجز والفصل والاجتياز، ومن حروف القطع، القاف للقوة والمقاومة والانفجار الصوتي والطاء للمطاوعة والطراوة والفلطحة والعين للعيانية والوضوح والفعالية"[7]

وأماالبعد: فالباء شديد مجهور أو بحكم انفجاره الصوتي بانفراج الشفتين سريعا بعد ضمّةٍ شديدةٍ، فهو أوحى ما يكون بمعاني البعج والحفر، والقطع والشق، والتحطيم والتبديد والمفاجأة والشدة"[8]

والدال: مجهور شديد ، أصم وأعمى مغلق على نفسه كالهرم لا يوحي إلا بالأحاسيس اللمسية وبخاصة ما يدل على الصلابة والقساوة وكأنه من حجر صوان،... وهو أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين"[9]

والعين: "وحرف العين في تعامله مع الحروف إما أنيشدها إلى تحقيق خصائصه الذاتية من الفعالية والقوة والصفاء والفخامة والسمو، وإما أن ينساق معها للتعبير عن مختلفخصائصها الحسية والشعورية وإن تناقضت أصلا مع خصائصه، ولكن ليضفي على معاني الألفاظ التي يشارك في تراكيبها في الأعم الأغلب كثيرا من الفعالية والعيانية والظهور"[10]

إذن فالكلمة "ليبعد" بهذه الحروف مجتمعة، تحمل معنى الشدة والصلابة في الأمر مع المفاجأة وكذلك تناسب الأمر مع معنى العذاب في الإبادة وقطع الدابر .

سبحان الله:

لاحظ معي هذا التقابل الدلالي بين:

الكلمتين **عبد= بعد**

كيف أن تقديم العين على الباء دل على القرب والوصال وأن تأخير العين وتقديم الباء دل عكس المعنى أي البعد والقطع.

ثم أن هذا التقابل حاصل في القصص إذ بدئت بالدعوة إلى العبادة بالقرب إلى الله عز وجل.وختمت بوقوع العذاب والابتعاد الذي لا يبق ولا يذر بعد تكذيبهم بالرسل.

قصة صالح– عليه السلام–:

– وتسير الأصوات في هذه القصة على نفس الوقع الذي سارت عليه في القصة الماضية، مصورة مشاهد اللين في الدعوة إلى عبادة الله في بداية الأمر ليتحول المشهد اللين بعد طول جدال إلى مشهد رهيب من العذاب الأليم، لذا تبقى المقابلة بين الأصوات

"ع– ب– د" "ب–ع– د" قائمة بهذا الشكل:

1– بدئت القصة بالدعوة إلى العبادة.

"وإلى ثمود أخاهم صالحا، قال يا قوم اعبدوا الله"[1]

قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجوا قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا.."[2]

وتختم القصة في الأخير بنفس الوقع الصوتي في سورة هود والذي اختتمت به قصة هود آنفا أيضا وهو البعد.

"ألا إن ثمود كفروا ربهم ألا بعدا لثمود"[3]

أما في سورة الأعراف فقد عبرت الآيات عن الهلاك. بأصوات مختلفة ألا وهي"الرجفة" التي تحمل معنى الذكر والارتعاش الشديدين صنعتها تناسق الأصوات المجتمعة "الراء– الجيم– الفاء"

الراء: مجهور متوسط الشدة والرخاوة ويدل على معاني التحرك والتكرار والترجيع وكذلك الاضطراب.[4]

الجيم:

فيها شدة تدافع النفس أثناء خروج الجسم إذ يحدث ارتجاج في مساحة واسعة من سقف الحنك، كما أنهما توحي بالشدة والقوة.

الفاء: مهموس رخو، يقول ابن جنى"إنه لرقة صوته، كثيرا ما يضفي معنى الضعف والوهن على الألفاظ التي يدخل في تراكيبها ولا سيما المؤلفة من حروف "د.ت.ط.ر ل. ن"[5]

" ولكن هذا الحرف بخفيف صوته الرقيق وبعثرة النفس لدى خروجه من بين الأسنان العليا وطرف الشفة السفلى، يوحي بملمس مخملي دافىء كما يوحي بالبعثرة والتشتت لتكون الخصائص الصوتية لهذا الحرف موزعة بين اللمسي والبصري"[6]

وهكذا تجانست هذه الأصوات مجتمعة لصنع معاني الرجفة بما فيها من ذعر وارتعاش فأصبحوا جاثمين في ديارهم"،وجاء عند ابن عاشور أن الرجفة:" اضطراب الأرض وارتجاجها، فتكون من حوادث سماوية، كالرياح العاصفة والصواعق وتكون من أسباب أرضية كالزلزال، فالرجفة اسم للحالة الحاصلة وفي سورة هود بالصيحة فعلمنا أن الذي أصاب ثمود هو صاعقة أو صواعق متوالية رجفت أرضهم وأهلكتهم صعقين ويحتمل أن يقارنها زلزال أرضي"[7]

"فأصبحوا في دارهم جاثمين"[1].

جاثم : أقرب إلى معنى الجثة الهامدة (الجثث):"الجاثم المكب على صدره في الأرض مع قبس ساقيه كما يجثوا الأرنب، ولما كان ذلك أشد سكونا وانقطاعا عن اضطراب الأعضاء استعمل في الآية كناية عن همود الجثة بالموت"[2]

قصة لوط–عليه السلام– :

– كل القصص بدئت بذكر الأخوة بين النبي وقومه

"وإلى عاد أخاهم هودا" "وإلى ثمود أخاهم صالحا"

"وإلى مدين أخاهم شعيبا"

ما عدا قصتا نوح ولوط. وموسى عليهم السلام وفي ذلك تفصيل:

أن نوحا أبو البشرية الثاني لا تربطه بقومه علاقة نسب وأخوة أما من جاء بعده من أنبياء. د هود صالح.شعيب فهم من ذريته، وأبناء قريتهم وقومهم لذلك نسبوا إليهم بالأخوة. أما لوط عليه السلام فهو غريب عن هذه الديار وهو ابن اخ سيدنا إبراهيم هاجر مع عمه و أرسله إبراهيم عليه السلام– إلى قرية سدوم ليدعوها إلى عبادة الله وأن يكفّوا عن فاحشتهم التي لم يسبقهم إليها أحد وقد جاء في التحرير والتنوير أن لوطا–ع س. قدم إلى القرية ومعه ابنتاه ثم تزوج امرأة ثانية من القرية ولم ينجب منها وخرج ولم يؤمن مع سواهما وأن امرأته كانت من الغابرين.

– ونفي الأخوة عن لوط –عليه السلام – فيه إشارة دلالية أيضا إلى استحالة نسبة النبي إلى قوم ظالمين عظمت فاحشتهم، وأصروا عليها.

– إشارة دلالية أيضا في سورة هود أن مهدت الآيات لقصة لوط بقصة إبراهيم عليهما السلام– والبشرى بالغلام. وفي ذلك إشارة إلى العلاقة الزوجية السليمة التي يحي فيها المرء تطبيقا موافقا للفطرة البشرية التي فطرها عليها خالقها– عز وجل– وهي حياة النبي إبراهيم –عليه السلام–. والتي تتوج برزق كريم منه وهم الأولاد.

– هذا في سورة هود أما في سورة الأعراف

فلم يفصّل في وقائع القصة إلا ذكر الفاحشة العظمى ومن ثم العذاب، الممطر. دون تحديد نوع المطر. أما سورة هود فقد حددت نوعه بأنه حجار، من سجل ، منضود، مسومة، وأنه جعل عاليها سافلها.

وهي كلمات قوية بأصواتها توحي بعظيم العذاب وأقساه .

– أما زوجته فكانت من الغابرين في سورة الأعراف.

غابرين: تدل أصوات هذه اللفظة على البعد والهلاك الذي لا رجعة بعده فالغين: صوت مجهور رخو.

وقد أتفق العلايلي والأرسوزي على أنه: لغؤور المعنى والغموض والخفاء[3]

فهو لا يوحي بالغموض فقط، وإنما بالإمحاء والعدم أيضا...كما أنه لا يوحي إلا بغرغرة الموت والإمّحاء، فصوته عندما يخرج من فوهة الحلق، إنما يخرج مخربا ممحوّ الألوان مجلببا بالسواد، وهكذا نسمع صوت هذا الحرف مثلما نرى الليل المظلم البهيم"[4]

كل هذه المعاني فما بالك إذا أضيفت إليه ألف المد، فإنه دلالة على الابتعاد في الأمم والتأكيد على حدوثه المديد غير المنقطع"من الغابرين" من الهالكين والغابر يطلق على المنقضي، ويطلق على الآتي فهو من أسماء الأضداد. وأشهر إطلاقيه هو المنقضي ولذلك يقال: غبر بمعنى هلك وهو المراد هنأي كنت من الهالكين: أي هلكت مع من هلك من أهل سدوم"[1]

قصة شعيب–عليهالسلام–

- حدث تكرار أيضا للعبارة الآنفة الذكر في كل القصص في كلتا السورتين وهي:

"يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره"[2]

وهذا لتأكيد مبدأ العبادة والتوحيد.

وبالمقابل كان الجزاء من جنس العمل إذ كذبوا فأبعدوا .فيعود ذكر البعد في سورة هود:

"كأن لم يغنوا فيها ألا بعدا لمدين كما بعدت ثمود" [3]

أما في سورة الأعراف فيوضح أكثر معنى العذاب فيعود مشهد ثمود وهو–

"فأخذتهم الرجفة فأصبحوا في دارهم جاثمين" [4]

- حدث تكرار في سورة الأعراف للفظة الخسران:
- أصوات مجتمعة: الأولى: توعد القوم شعيبا وقومه أنهم من الخاسرين.

"لئن اتبعتم شعيبا إنكم إذا لخاسرون"[5].

وبأسلوب تهكمي يرد على المتوعدين أن الخسران لم يكن من نصيب الذين اتبعوا شعيبا إنما كان من نصيب الآخرين الذين كذبوه:

- **"الذين كذبوا شعيبا كانوا هم الخاسرين"**[6]

وفي ومضة ها نحن نرى هؤلاء في دارهم جاثمين، لا حياه ولا حراك كأن لم يعمروا هذه الديار وكأن لم يكن لهم فيها آثار.

قصة موسى – عليه السلام–

–القصة أكثر تفصيلا في سورة الأعراف وأشد اقتضابا واختصارا في سورة هود لذلك فقد تعددت المشاهد المعروضة في السورة الأولى فوقع التفصيل في جميع مراحل الدعوة"دعوة فرعون وملئه– معجزة العصا– إيمان السحرة – نجاة موسى ومن معه...الخ.

– لم يرد ذكر "الأخوة " في قصة موسى –ع س. وهو مبعوث إلى فرعون وقومه دلالة على أن موسى –عليه السلام– لم ينسب إلى فرعون الذي ربّاه في قصره صغيرا وهو في الأصل من بني إسرائيل الذين استضعفهم فرعون ونكّل بهم.

– "آية "="آيات"

جاء في سورة هود أن ما بعث به موسى "آيات" وسلطان مبين"**ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين"**[7].

أما في الأعراف فقد جاءت بصيغة المفرد "آية"

"قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين"[8].

أما في سورة الأعراف فقد أشار مباشرة إلى الآية التي أوتي بها موسى "العصا واليد البيضاء" وأما الآيات في سورة هود فهي إشارة إلى كل المعجزات التي جاء بها موسى– عليه السلام –

و لم تذكر في هذه السورة ولكن ذكرت في مواضع أخرى من القرآن الكريم: العصا– اليد– العيون– الألواح– التكليم..الخ.

– ورد تكرار للأصوات التالية "**و.ر.د**" بصورة مجتمعة في سورة هود حيث صنعت نغمية ونبرا رائعين، إذ صورت الطريقة التي يساق بها المجرمون إلى النار وسوء مقامهم فيها:

" .. **فأوردهم النار وبئس الورد المورود**" [1].

ثم"... **ويوم القيامة بئس الرفد المرفود**"[2].

– كذلك هنالك تكرار بديع ومجلجل في الآيات التي تصور الحرب الكلامية والنفسية التي دارت بين موسى والسحرة في سورة الأعراف إذا تكرر معنى الإلقاء: وصوت القاف الشديد المجهور يضع قوة صوتية توحي بالثقة والثبات في نفس موسى وهو يحاور السحرة.

"**قالوا ياموسى إما أن تلقي وإما أن نكون نحن الملقين**"[3].

"**قال ألقوا فلما ألقوا سحروا أعين الناس**".[(4)]

"**وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا تلقف ما يأكلون**" [(5)]

"**فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين**"[(6)]

"**وألقي السحرة ساجدين**"[(7)].

وبعدما كانت المعجزة تحصل بحدوث إلقاء ما في اليد ،عبّر السحرة في الأخير عن عجزهم عما في يد موسى، واعترفوا بنبوته هذه المرة بإلقاء أنفسهم كاملة ساجدين لرب العالمين فلاحظ كيف صنع الإلقاء كل هذا؟! .

خلاصة : وبعد هذا التحليل الصوتي لخصائص الصوت في القصص القرآني الواردة السورتين يمكن أن نخلص للنتائج التالية :

1– أما عن الأصوات فهي متكررة في القصص الطويلة، موجزة غير مكررة في القصص القصيرة.

2 – احتواء القصص الطويلة على بعض المقاطع الطويلة والمركبة مثلا في قصة نوح –عليه السلام –في سورة هود، ليتماشى الصوت مع حركة الدعوة الطويلة والمتكررة ليلا نهاراً مثلا المقطع :"**أنلزمكموها**"

3 – الهول والجلل الصوتي الذي صنعته الآية 44 من سورة هود – عليه السلام– يطغى على جميع قصة نوح عليه السلام – بما فيها من تجانس صوتي ولفظي وتركيبي.

4–قد بيّنت بعض الأصوات المتكررة في القصص تنوعا دلالياً بصورة تقابلية مثلا:

" ع. **ب** . **د** " " **ب** . ع. **د** " فالأولى دلّت على القرب والثانية دلت على البعد.

5– أما الفواصل فقد جاءت متنوعة في القصص، فهي طويلة في موضع التفصيل وقصيرة في موضع الإيجاز، كما أنها كانت تحمل شحنة دلالية للآية التي وردت فيها أو القصة ككل، ثم أننا وجدنا بعض الفواصل المتكررة صوتا ولفظاً ومقطعاً وهذا للتأكيد على المعنى مثلا " **خاسرون**" في قصة شعيب عليه السلام و(**جاثمين مجرمين– كافرون** ...) في كلتا السورتين .

6– ساهمت الأصوات في رسم الجانب النفسي للسياق والمقام في القصص بصورة معبرة جداً ،مثلا في قصة موسى –عليه السلام– أعطى القاف الشديد المجهور، قوة صوتية توحي بالثقة والثبات في نفس موسى وهو يحاور السحرة.

4–قد بيّنت بعض الأصوات المتكررة في القصص تنوعا دلالياً بصورة تقابلية مثلا:

" ع. **ب** . **د** " " **ب** . ع. **د** " فالأولى دلّت على القرب والثانية دلت على البعد.

5– أما الفواصل فقد جاءت متنوعة في القصص، فهي طويلة في موضع التفصيل وقصيرة في موضع الإيجاز، كما أنها كانت تحمل شحنة دلالية للآية التي وردت فيها أو القصة ككل، ثم أننا وجدنا بعض الفواصل المتكررة صوتا ولفظاً ومقطعاً وهذا للتأكيد على المعنى مثلا " **خاسرون**" في قصة شعيب عليه السلام و(**جاثمين مجرمين– كافرون** ...) في كلتا السورتين .

6– ساهمت الأصوات في رسم الجانب النفسي للسياق والمقام في القصص بصورة معبرة جداً ،مثلا في قصة موسى –عليه السلام– أعطى القاف الشديد المجهور، قوة صوتية توحي بالثقة والثبات في نفس موسى وهو يحاور السحرة.

الهوامش:

[1]) ابن جني، الخصائص، تح الهنداوي، دار الكتب العلمية، ط 03، بيروت 1424 هـ،ج1 ، ص 505.

[2]) سيبويه, الكتاب تح عبد السلام هارون ،دار الكتاب العملية ، ط2، بيروت 1982 الكتاب ج4 ص 75.

[3]) ابن جني، الخصائص، ج1 ص 499.

[4]) إبراهيم أنيس، دلالة الألفاظ، مكتبة الأنجلو المصرية ،ط 05، القاهرة 1984، ص 70.

[5]) إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة ،مكتبة الأنجلو المصرية ،ط 06، القاهرة1978،ص 144.

[6]) خالد قاسم بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية في القرآن الكريم، عالم الكتب الحديث،ط1إربدالأردن2006، ص 80.

[7]) القيامةالآية01.

[8]) المزمل الآية.04

[9]) البقرة الآية121

[10]) خالد قاسم بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية، ص 87.

[11]) جمال الدين ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي ط1 بيروت د ت .ج1 مادة كرر

[12]) فضيلة مسعودي، التكرارية الصوتية في القراءات القرآنية– قراءة نافع أنموذجا، دار الحامدة ،ط1 ،الأردن 208 ص 20.

[13])) فاضل صالح السامرائي، أسرار البيان في التعبير القرآني ، من محاضرة ألقاها الدكتور السامرائي ضمن فعاليات جائزة دبي الدولية للقرآن الكريم عام 2002،ص 54

[14]) الحاقة،الآيات.3،2،1

[15]) التكاثر،الآيات.6،5،4

[16]) محمود السيد حسن المصطفى، الإعجاز اللغوي في القصة القرآنية، ط1، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية 1981 ص 114.

[17]) سيد قطب ، في ظلال القرآن ،دار الشروق الطبعة الشرعية 32، القاهرة 2003،المجلد 02 الجزء 12،الصفحة 1844.

[18]) الأعراف، الآية 60.

[19]) الأعراف ،الآية 62.

[20]) هود ، الآية 34.

[21]) هود، الآية.27

[22]) هود ،الآية 26.

[1]– أبو الحسين أحمد بن فارس . الصّاحبي في فقه اللغة العربية ومسائلها وسنن العرب في كلامها.ص 209.

[23]) هود، الآية .28.
[24]) هود ،الآية 29.
[25]) هود ،الآية .31.
[26]) هود، الآية .34.
[27]) هود، الآية.28.
28) طالب محمد إسماعيل الزوبعي، من أساليب التعبير القرآني(دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني) دار النهضة العربية ،ط 01، بيروت 1996، ص 367.
[29]) نوح ،الآية .07.
30) الهنداوي، الإعجاز الصوتي في القرآن الكريم، ص 30.
[31]) الزمر، الآية45.
32) هود، الآية44 .
[33]) الجرجاني، دلائل الإعجاز ، ص .89.
[34]) الزوبعي،من أساليب التعبير القرآني ص 384، 385.
[35]) الزمخشري، الكشاف ،تح عبد الرزاق المهدي،دار إحياء التراث العربي ط 01، بيروت 2005 ج2 ص .398.
[36]) البقرة ،الآية .117.
[37]) الزوبعي،من أساليب التعبير القرآني ،ص .358.
[38])) الأعراف، الآية69 .
[39]) هود، الآية59 .
[40]) خالد بن دومي، دلالات الظاهرة الصوتية،ص .196.
[41]) الزركشي، البرهان في علوم القرآن ، تح محمد أبو الفضل ابراهيم ،دار إحياء الكتب العربية ،مصر1957،ج1ص 429.
[42]) البقرة ،الآية .247.
[43]) الأعراف، الآية.69
[44]) فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني، دار الشؤون الثقافية العامة، ط1 ، بغداد 2000، ص .47.
[45]) فاضل صالح السامرائي، بلاغة الكلمة في التعبير القرآني دار الشؤون الثقافية العامة،ط1 ،بغداد 2000، ص.72.
[46]) الأعراف ،الآية .72.
[47]) هود ،الآية .60.
[48]) حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتاب العرب ، دمشق 1998، ص .241.
[49]) المرجع نفسه ص .213.
[50]) حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها، اتحاد الكتاب العرب دمشق 1998، ص .67.
[51]) المرجع نفسه ، ص.213.
[52]) الأعراف ، الآية 73.هود ،الآية .61.
[53]) هود ،الآية .62.
[54]) هود ، الآية .68.
[55]) حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها ،ص.132.
[56]) المرجع نفسه ، ص86 ،87 بتصرف .
[57]) المرجع نفسه ،ص 132 .

[58]) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير مج4 ص.227
[59]) هود ،الآية 78.
[60]) محمد الطاهر بن عاشور ، التحرير والتنوير مج 4 ص.227
[61]) حسن عباس، خصائص الحروف العربية ومعانيها ص .126
[62]) المرجع نفسه ،ص .126
[63]) محمد الطاهر بن عاشور، التحرير والتنوير، مج 04 ص 237 .
[64]) الأعراف ،الآية 85. هود ، الآية 48.
[65]) هود ، الآية 95.
[66]) الأعراف ،الآية 91.
[67]) الأعراف ، الآية 90.
[68]) الأعراف ،الآية92 .
[69]) هود ،الآية 91.
[70]) الأعراف ،الآية 116.
[71]) الأعراف،الآية 106.
[72]) الأعراف ،الآية 117.
[73]) هود ، الآية 98.
[74]) الأعراف ،الآية 119.
[75]) هود ، الآية 99.
[76]) الأعراف ، الآية .120
[77]) الأعراف ،الآية 115.

الإتْباع في اللّغة

الأستاذة: د. منصوري خيرة
قسم اللّغات اللاتينية
كلية الآداب و اللّغات– السانيا وهران